

عن آلام المسيح وكتاب أيوب

الشماس بافل سيرزانتوف

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

يتكشّف العهد القديم في العهد الجديد. يكشف سفر أيوب عن معناه بطريقة مدهشة. يُقرأ هذا السفر في خدم الكنيسة خلال الصوم الكبير. يهيئنا هذا الكتاب للقاء المسيح المتألم والقائم من بين الأموات. ماذا يخبرنا العهد القديم؟ يخبرنا عن العلاقة المتبادلة بين الله والإنسان، هذا تمامًا ما تفعله جميع كتب العهد القديم. الرب يسود العالم، يكافئ الصالحين ويعاقب الخطاة. ولكن، كما نرى في سفر أيوب، ليست كل ضائقة عقاباً على خطيئة.

نقرأ في الكتاب المقدس عن اختبار أيوب للعذابات المرهقة على شفا الموت، فيما أصدقاؤه يحثونه على التوبة لوقف عقاب الله. لا يرى أصدقاء أيوب أنه يقبل العذاب بسبب خطايا السرية، ولا أن المحرض على كل هذه المعاناة هو الشيطان الذي يحسد الله ويكره عبده. إن أيوب يصارع الشيطان. يقبل المسيح الآلام كما قبلها أيوب، لا لنفسه ولا من أجل آثامه. لقد ضلّب المسيح من أجل خطايا الآخرين.

لقد شغل أيوب منصباً رفيعاً وكان محاطاً بالاحترام، ثم فقد كل شيء، أولاده وصحته وممتلكاته، وكان ملقى في المرارة منبوذاً من المجتمع البشري خارج بوابات المدينة (أيوب ٨:٢). وعندما بدأ أن كل شيء قد انتهى، أعاد الرب إلى أيوب كل ما كان قد فقده، وأطال حياته لسنوات عديدة أخرى. على المنوال نفسه، مات ربنا يسوع المسيح خارج سور أورشليم. من ثم قام إلى الحياة الأبدية، وهو يعطي حياة جديدة لكل من يؤمن به. في سفر أيوب، ينخرط الخير والشر في حرب لا مصالحة فيها. تظهر قوة الشر جبروتاً عظيماً، لكن قوة الخير تستبين كلية القدرة. إن الله كلي القدرة بالمعنى الكامل للكلمة، لذا فإنّ خادمه أيوب يجد أيضاً قوة روحية كبيرة ويهزم الشيطان.

هناك مواجهة بين الله والشيطان، لكنها مواجهة بين قوى غير متكافئة. مهما كان الشيطان قوياً فالله أقوى. الشيطان مُجبر على الخضوع لله رغماً عنه؛ ليس في كل شيء، لكن في بعض الأشياء عليه أن يخضع لله. نحن نعلم أن الله أسمى من كل الملائكة؛ فالخالق أسمى من كل مخلوقاته.

ينشأ جدال بين الله والشيطان حول أيوب الصديق: لماذا يصمد أيوب مخلصاً لله؟ هل هذا فقط لأن الله يظهر رحمته لأيوب؟ هل سوف يستمر أيوب في مباركة مصيره وإلهه إذا حلت به كارثة حقيقية ولم يأت به أي عون من فوق؟ خسر الشيطان هذا النقاش. لكن من ربح؟ الله. من دون أن ننسى أن رجل الله أيوب هو أيضاً ربح هذه النزاع. انتصر على الشيطان وبقي مع الله مهما حدث.

من بعيد، قد يبدو الأمر هكذا: السادة يتقاتلون أما العبيد فيرتجفون. الله والشيطان يتجادلان، بينما يتعرّض أيوب الصالح وعائلته للدمار بدم بارد. "لقد تراهنوا على أيوب." هل حقاً كان الوضع على هذا المنوال؟ لا ليس كذلك. لم يكن أيوب قطعة نقدية في مقامرة شخص ما. لم يكن هؤلاء مقامرین أقوياء يقومون بتصفية

الحسابات، مستخدمين الأحياء كوسيلة لإثبات تفوقهم. لا يلعب الله بمصير الإنسان، وهو يحد من حرية الشيطان في الحركة. لا يسمح الله للشيطان أن يلعب من أجل المتعة. بالنسبة لله، ليست المعاناة البشرية لعبة. في النهاية، هو جاء بنفسه إلى الأرض وقبِل الألام. لقد وقف مكان إنسان متألّم هالكٍ إذ ذاك. هاجمه الشيطان أيضاً والمسيح هزم الشيطان.

يعتبر المسيحيون أن سفر النبي يونا هو نبوءة من العهد القديم عن المسيح. كذلك هم يعترفون بكتاب أيوب على هذا النحو.

لقد رفعت قوى الشر السلاح ضد المسيح وأيوب. ومما زاد الطين بلة، أن "الناس الطيبين" تقدموا بتوبيخهم، وخطبهم الطويلة المليئة بالتقوى السطحية. جاء أصدقاء أيوب إليه بنية موآساة رجل مريض. رأوا وضعه المحزن بأم أعينهم وفي البداية التزموا الصمت احتراماً. ثم بدؤوا حديث التوبة. في البداية، اقترح أصدقاء أيوب بحذر فكرة أن الألام تحلّ بالناس بسبب خطاياهم، بينما ينال الشخص التائب مغفرة الله وتتركه تلك الألام. بهذا دعوا أيوب إلى التوبة. رفض دعوتهم. لماذا؟ يتضح السبب أكثر وأكثر مع كل خطاب جديد ويأخذ الجدل حول التوبة طابعاً أكثر حدة. أخيراً، تُزال الأقنعة. وخلف أقنعة أصدقائه يمكن رؤية وجوه قضاته القاسية.

لم يأت هؤلاء الناس لتعزية أيوب، بل لإدانته. لا تختلف دعواتهم للتوبة بأي شكل من الأشكال عن بعض استجابات الأجهزة الستالينية. في كثير من الأحيان، لم يكن محقق هذه الأجهزة يتكلّف حتى عناء توجيه الاتهام للمعتقل، بل كان يسأل ببساطة: "أخبرنا عن أفعالك الإجرامية. ألم تفعلها؟ لماذا أنت في السجن إذًا؟ عن طريق الخطأ؟ لا ترتكب الأجهزة أخطاء؛ إنهم لا يسجنون الناس من أجل لا شيء! أخبرنا بما أنت مذنب به. باشر، لا تضيع الوقت! من مصلحتك الخاصة الإدلاء باعتراف صادق".

عندما رفض أيوب مرة أخرى ذكر كل انتهاكاته السرية والعظيمة، راح أصدقاؤه يهددونه: "إن الأمر سيئ للغاية بالنسبة لك الآن. إن لم تعترف فسيكون الأمر أسوأ!" استمر أيوب في الامتناع عن مثل هذا الاعتراف الذي لا يمكن أن يرضي الله. اعترف بألم بأنه يرغب في التحدث عن ذلك مع الله نفسه ليسأله عن سبب كل هذه الألام الفظيعة. ثم تكلم الله بنفسه إلى أيوب وذكره أن الخالق أعلى من كل المخلوقات، وأن الإنسان لا يستطيع أن يفهم كل مقاصده وأفعاله. تواضع أيوب أمام الله بتوبة تعترف بعظمة مخططات الله وبرارة أعماله. يضع الله نقطة الختام على نهاية جدال أيوب مع أصدقائه. أيوب صالح. أخطأ أصدقاؤه إليه بإدانتهم لرجل بار، وعليهم الآن أن يطلبوا من أيوب الصلاة من أجلهم.

تنتهي قصة العهد القديم بانتصار أيوب على مخططات الشيطان، وتلقّيه بركة من الله. لكن في الواقع، لم تنته القصة بعد... فهي تستمر في العهد الجديد، حين يتحد الله مع البشرية المتألّمة، ويعيش كإنسان، ويتألّم ويؤدّي خدمته العظيمة على الأرض. ينزل إلى الهاوية ويهزم قوى الشر، ويقوم إلى الحياة الأبدية، ويمد يده لمساعدة الذين يموتون.

Source: Deacon Pavel Serzhantov. On the Passion of Christ and the Book of Job. Provoslavie. 5/2/2013.
<https://orthochristian.com/61259.html>